

فرص نادرة في الحياة بمثابة أرحام للنمو والارتقاء

ما المقصود بالرحم؟ ولماذا تُعدّ الأرحام فرصًا نادرة في الحياة؟

غالبًا ما يتبادر إلى أذهاننا، عند سماع كلمة "رحم"، ذلك الموضع الذي ينمو فيه الجنين في بطن الأم، حيث تتكوّن أعضاؤنا وتتشكّل فيه ملامح وجودنا. لكن ما قد يثير الدهشة هو أننا، خلال مسيرة حياتنا، نتعامل مع أرحامٍ من نوع آخر أيضًا؛ أرحام تُعدّ من أندر الفرص الحياتية، وتؤثّر تأثيرًا عجيبيًا في نموّنا الإنساني وارتقائنا الروحي والقلبي. فهل تعرف هذه الفرص النادرة التي تمرّ بك في حياتك؟ وهل سمعت بشيء من آثارها العجيبة؟ ولماذا سُمّيت أصلا بـ "الرحم"؟

للإجابة عن هذا السؤال، لا بدّ من التأمل في وظيفة "الرحم" ذاتها. فالرحم، في جوهره، موضع للإكمال والبناء. إنه يستقبل كيانًا يحمل طاقات كامنة، فينميها، ويُفعل استعداداتها، ثم يدفع به إلى مرحلةٍ جديدة. فبعد أن نولد من رحم الأم، ننتقل إلى الرحم الثاني: عالم الدنيا. ولكن المدهش أن هذا العالم نفسه، يضمّ بين طياته أرحامًا أخرى ذات طاقة عظيمة؛ أنظمة دقيقة ومحسوبة بمنطق رياضي، تُشكّل فرصًا نادرة في حياتنا لبناء الذات وتحقيق الكمال.

بفضل هذه الأرحام المتداخلة، تكتسب الدنيا طاقة بنائية عظيمة، بحيث يستطيع كلّ واحدٍ منا، إذا ما دخل في أحدها، أن يعوّض حجمًا كبيرًا من أخطائه وتقصيره، بل قد يتمكّن من التقدّم في ساعةٍ واحدة بما يعادل عشرات السنين، متجاوزًا بذلك ملايين الناس من حوله.

هذه الفرص النادرة تتجلى في ثلاثة أنواع من الأرحام:

١. أرحام زمانية

٢. أرحام مكانية

٣. وأرحام متمثلة في أستاذ أو شخصية.

في هذا الدرس، نستعرض أولاً خاصية "الرحمية" في الدنيا، ثم ننتقل للحديث عن كلّ من الأرحام الزمانية، والمكانية، وأخيرًا رحم الأستاذ.

الدنيا بمثابة رجم

لقد تطرقنا في الدروس السابقة بشيءٍ من التفصيل إلى كون الدنيا رجمًا. وقلنا إن الدنيا، بالنسبة للآخرة، تقوم بدور "الرجم". فكما أنّ رحم الأم، خلال تسعة أشهر فقط، يُهيئ الجنين لحياةٍ تمتد عشرات السنين ضمن ظروف بيئية دنيوية، كذلك رحم الدنيا يُعدّنا، طوال عمرنا الدنيوي، لحياةٍ أبديةٍ لا نهائية في بيئة الآخرة. إن القلب - أي نفس الجانب الإنساني من وجودنا - يشبه جنينًا تحتضنه الدنيا وتلبّي احتياجاته، ليولد في نهاية المطاف ولادةً سليمةً إلى الآخرة. غير أنّ هذه الولادة السليمة لن نحظى بها إلا إذا تحقق أمران: أولاً، أن نعترف بوجود الجانب الإنساني من وجودنا، وثانيًا، أن نكون على وعيٍ بطبيعة الحياة بعد الموت، وفهمنا نوع الرحلة التي سنخوضها، وما الذي نحتاج إليه من زاد واستعداد. وكما أن وجود الجنين في رحم الأم بمفرده، لا يضمن له ولادةً صحية، فإن مجرد التواجد في رحم الدنيا لا يكفي لضمان ولادة سليمة للروح إلى الآخرة. صحيح أن الدنيا هي الفرصة الوحيدة التي مُنحنا إياها لبناء قلوبنا، لكنّ الكثيرين لا يُحسنون استثمار هذه الفرصة النادرة.

ولأن الله تعالى، بفضلهِ ورحمته، يريد لنا أن نسير في طريق الكمال بسرعةٍ أكبر، وقوّةٍ أعظم، فقد وضع في قلب هذا "الرحم الدنيوي" أرحامًا أخرى ذات قدرات بنائية خارقة، تُضاعف فاعلية الدنيا أضعافًا كثيرة. ولعلّ أفضل ما يُعبّر عن طبيعة هذه الأرحام هو الفرق بين سرعة السيارة وسرعة الطائرة؛ فالمتوسط العام لسرعة الطائرة يتراوح بين ٨٠٠ و١٠٠٠ كيلومتر في الساعة، بينما السيارة، حتى في أفضل حالاتها، لا تتجاوز سدس هذه السرعة. ومن هنا، فإنّ مسافةً تستغرق ١٣ ساعة في السيارة، يُمكن للطائرة أن تقطعها في ساعة واحدة فقط.

بل قد لا يكون هذا المثال كافيًا في تصوير واقع الفرق، لأنّ من يدخل في رحمٍ زمنيٍّ مثل ليلة القدر - إن هو استغلها بدقة ووعي - يُمكنه أن يُعوّض عن سبعين عامًا من الذنوب، في لحظات معدودة! وهذا أشبه بسرعة الصاروخ، لا الطائرة! في ما يلي، سنبدأ بالتعرّف على هذه الأرحام القويّة، وكيف تؤثر على النفس الإنسانية، وتُسرع وتيرة البناء والتكامل في حياتنا.

أرحام زمانية... فرضٌ نادرة للنموّ الروحي

من الناحية الرياضية، جميع الأوقات متساوية؛ فساعةٌ من اليوم تُعادل، بدقّة، ساعةً من الغد. ولكن، من حيث القدرة على البناء والتأثير الروحي، فإنّ بعض الأزمنة تتفوق على غيرها، وتمتاز بقابليتها العجيبة لصياغة النفس الإنسانية وارتقاؤها. تمامًا كما تلعب الأسابيع الثمانية الأولى من تكوّن الجنين دورًا بالغ الأهمية في تشكيل أعضائه أكثر من أي مرحلة لاحقة من الحمل، هناك أيضًا أوقات مخصوصة تُدعى "الأرحام الزمانية"، تتميز بقوة بنائية عالية على مستوى الروح.

ومن أبرز هذه الأرحام الزمانية التي لها تأثيرات ميتافيزيقية عميقة على النفس، رحمٌ يوم الجمعة. إن ليلة الجمعة ونهارها يحملان من البركات والتجليات ما لا تحمله سائر أيام الأسبوع، حتى إنّ العمل الصالح أو العبادة فيهما يُثاب عليها مضاعفًا، دنيويًا وأخرويًا. والسبب في ذلك يعود إلى طبيعة هذه الساعات الاستثنائية، إذ تتسم بقدرة روحية مضاعفة، فتؤثر في النفس الإنسانية تأثيرًا يتجاوز الحالة العادية.

ولا يقتصر الأمر على أيام الأسبوع، بل إنّ في كل يومٍ ليلة ساعات مخصوصة تتسم بالروحانية الفائقة؛ فالسحر والليل مثلاً، يتفوقان على بقية الأوقات في قدرتهما على تهذيب النفس، وصقل الروح، وتحريك القلب.

أما على مستوى الشهور، فإنّ رجب، وشعبان، ورمضان، و ليلة عرفة ويومها، تُعدّ من أعظم الأرحام الزمانية و أئمن الفرص الحياتية التي تتاح للإنسان.

فشهر رجب مثلاً يُعتبر رحمةً زمنيًا فائق القوة، حتى سُمّي "شهر الأصب" لأنّ المغفرة والبركة والرحمة الإلهية تنهمر فيه بغزارة على النفس الإنسانية، وتُهيئها للدخول في رحمتين أقوى: شعبان، ثم رمضان. أما رحم رمضان، فهو أعظم من سابقه، لما فيه من خصوصيات فريدة: حتى النوم فيه يُعدّ عبادة، والتنفس فيه يُحسب تسبيحًا، وتلاوة آية واحدة من القرآن فيه تعادل ثواب ختم المصحف كاملًا!

وفي قلب هذا الرحم العظيم، يُوجد رحمٌ أعظم، أشبه بجوهرةٍ مصنوعة، هي ليلة القدر؛ تلك الليلة التي تفوق خيرَ ألف شهر،¹ أي ما يُعادل تقريبًا عمر الإنسان الطبيعي. إنها قوةٌ مبهرة تفوق الوصف، وقد سمعنا الكثير عن فضلها.

الأرحام المكانية: فرص ذهبية للتقدم الروحي

الأرحام المكانية هي أماكن اختصّها الله بخصائص ميتافيزيقية فريدة، تمنح فطرة الإنسان عمقًا، وتُسرّع حُطاه نحو "القلب السليم". المساجد، بيت الله الحرام، مرقد المعصومين، الأماكن المقدسة، والحسينيات، جميعها نماذج من هذه الأرحام المباركة.

كثيرٌ منّا قد جرّب ذلك التحوّل الفوري حين يدخل حرمًا من أهل البيت (عليهم السلام)، فتتبدّل مشاعره، وتهدأ أفكاره، وتنساب في قلبه سكينَةٌ عجيبة، وكأنّه أصبح أقرب إلى الله تعالى من أي وقتٍ مضى. هذا الأثر ليس مجرد انطباع نفسي، بل هو انعكاس لتلك الخصائص الغيبية التي تفيض بها هذه الأماكن، وإلا فظاهريًا، هي أبنية كغيرها، سُيّدت من طوبٍ وأسمنت.

قد سمعت بنفسك قصصًا لأشخاص تغيّر مسار حياتهم داخل هذه الأرحام المكانية، وتابوا توبةً صادقة بين يدي الله، وقد تكون أنت أحد أولئك الذين ذاقوا هذا التحول بأعينهم وقلوبهم.

الأستاذ بوصفه رحماً: من الفرص النادرة في الحياة

من بين الفرص النادرة في الحياة التي تؤثر تأثيرًا بالغًا في سرعة نمونا وتكاملنا، هي الاستفادة من الأستاذ كرحم أو الشخصية المُلهمة.

الأستاذ كونه رحماً يعني أن تحظى بمرافقة مربٍ أو أستاذٍ حكيم، يُدرك بنية النفس البشرية وقوانينها، ويكون هو نفسه قد سلك هذا الطريق، وخبر تعرّجاته ومزالقه، ويعرف كيف يدلّك على الطريق إلى الله.

¹ سورة القدر، الآية 3

قد يكون الأستاذ أقوى أثرًا حتى من الرحم الزمني والمكاني، فهو يُعيد ترتيب فكرك، ويُنظّم قلبك، ويُعلّمك بأسلوب عملي كيف تعيش حياةً إنسانية حقيقية. إن وجودك في حضرة أستاذ كهذا، هو كمن يتعلّم الرسم على يد فنانٍ بارع، فيكون تطوّره أسرع بأضعاف ممن يتعلّم وحده دون توجيه. وسنتناول دور الأستاذ رحماً في الدرس القادم بشكل أكثر تفصيلاً.

في هذا الدرس، تناولنا خصائص الأرحام الثلاثة المذهلة، الزمانية، المكانية و الشخصية، وأشرفنا إلى أن الاستفادة الواعية منها يمكنها أن تُعالج تأخرنا وضعفنا في السير نحو الكمال الإنساني المنشود. ولكن لا تنسَ هذا المبدأ الأساسي: أن تجلس في سيارة سريعة لا يكفي لتصل إلى وجهتك إن لم تكن تعرف كيف تقودها! وكذلك الأمر مع هذه الأرحام الثلاثة؛ لا يكفي أن تمرّ بها، بل لا بد أن تتعلّم كيف تُحسن استخدامها.

والآن، ما رأيك؟

هل جرّبت يوماً دخول أحد هذه الأرحام؟
هل شعرت يوماً بتحوّل عميق في حضرة أستاذ، أو في مسجد، أو في زمانٍ مبارك؟
إن كانت لك تجربة ملهمة، فشاركنا بها، علّها تكون منارة لغيرك.